سوناتا الركام

ومسرحيات أخرى

حسين علوان

الكتاب: سوناتا الركام ومسرحيات أخرى

الكاتب: حسين علوان / كاتب عراقي

الطبعة: ٢٠١٦

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

علوان، حسين

سوناتا الركام / حسين علوان – الجيزة: وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٤.

تدمك: ٢ – ٦٧ – ٥٧٧٢ –٩٧٧

٠٠ ص، ٠٠ سم.

رقم الإيداع / ١٣٨٧٥ / ٢٠٠٤

سوناتا الركام

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

لم تخرج هذه النصوص من جوف الحرب المكفهرة، لا أنوي في هذه المقدمه أن أحيل النصوص إلى مؤثرات بحد ذاتها أضفت وحيدة إلى خلقها لكن إشارة أجدها مهمة لوصف الزمن الذي نمت في حدوده تبدو ضرورية للإضاءة على خلفية وقائع النصوص والانطلاقة التي آلت فيما بعد إلى دراما تجسدت على الورق، ثم على خشبة المسرح حيث قدمت بعضها في مسارح بغداد وعمان وصنعاء.

كتبت هذه النصوص عبر فترات متباعدة منذ الثمانينيات. وكنت قد حسمت الأمر في داخلي أن الفكرة المشتركة بينها انبثقت في ذهني يوما ما على الحدود الإيرانية حيث كنت جنديا إبان الحرب العراقية الإيرانية. والفكرة المشتركة حسبما ارتأيت هي قيمة النهاية. يبدو ذلك طبيعيا لشخص يواجه الموت في جبهة القتال كل دقيقة

وكل يوم لسنوات طويلة، فيصبح امتداد المواجهة محركا لطول التأمل في حقيقة واحدة بعينها.

النهاية التي يمكن أن تحل فجأة لا تترك فسحة لتناوب الفكرة في أعماق الروح، لكن انتظار النهاية المحتومة طويلا يمكن أن يعزلها جانبا لتصبح حالة مشخصة خارج كيان الفرد.

طالما تعلق الأمر بي وتبعا للالتزام الذي أحتطه حيال رحلة حياة وحيدة لن تتكرر أبدا، سيكون من قبيل الاستهانة بالمصير والقدر الإنساني أن يتم تجاوز ذلك ولا يتم تناوله تناولا جادا ما دام يستطيع المرء ذلك أو يسعى لذلك على اللقب.

من المؤكد أن أفكار المسرحيات لا تنتمي إلى تلك المنطقة الذهنية فحسب، هناك الكثير من المحفزات التي يمكن أن تقود إلى خلق عمل فني استنادا إلى الخبرة الأكاديمية العملية المكتسبة والاستعداد الفطري الخام على حد سواء، وهناك العديد من الآليات المنظمة التي تمتلك القدرة على إنضاجه ليصبح واقعا. لكن التفكير المنتظم بحقيقة كبرى مثل هذه لا بد أنه نما متمهلا في داخلي على وقع المدافع التي كانت تهدر في كل الأنحاء شاهدا على جسامة القسوة التي يمكن أن ينطوي عليها الإنسان، وقدرته على أن يصبح وحشا بشريا يشيع الموت والدمار بإشعاله الحروب الجنونية لأسباب واهية. وهكذا فأن تعيش التجربة بتفاصيلها هو أمر يختلف عن أن تسمع أو

تقرأ عنها التجربة في أن تكون مهددا قسرا لتفقد كل ما هو جميل في الحياة، في الوقت الذي تكون مؤهلا لأن تنهل منها بكل ما أوتيت من قدرة على النهل.

في خضم ذلك العصف الغرائبي بدا لي أن خشبة بمشاعر إنسانية جياشة.

برغم ذلك فإن هذا هو جزء من الحقيقة فحسب. أن الرحيل عن هذا العالم هو حقيقة ماثلة على اختلاف التجارب الشخصية هذا عالمك زائل، والحياة سحاب عارض يمر سريعا أمام العين، محملا بكل المطر الذي لم يستطع الهطول وكل السحاب الذي لم يستطع الأفول. فيغادر عازف الكمان الصالة محملا بالموسيقى، ورامبو محملا بالقصائد، وفان كوخ يغادر محملا بالشمس ولو تركه محملا بالحب. ويغادر الجندي الحرب كمن دخل الحياة من باب خلفي. كأنه في خضم تلك الوحدة المريعة كائن لا يستحق الحياة.

أتذكر جيدا في ذلك الزمن العصيب وفي بحر تلك الرمال القاحلة كيف كنا نبقى لأشهر نحلم برؤية شجرة. وبسبب ذلك فحسب استوعبت على وجه الخصوص بشكل كامل جمال كل الأشجار التي رأيتها بعدئذ.

قد تشكل الحرب أكبر الاختراعات البشرية مدعاة للسخط والخجل أن يوقد سعيرها شخص واحد على الأغلب، ويجعل من الكل

وقودا لها عداه هو، ويبتكر لإدامة وقعها أشد الأسلحة فتكا. ثم يريد بعد ذلك أن يذكره التاريخ بالمجد، بينما ينتهي الأمر دائما في أن يسقط رأسه في السلة الكريهة.

لماذا كوخ ولوركا ورامبو؟. لو اخترت غيرهم لتردد نفس السؤال. التجارب الإنسانية واحدة في النهاية.

إن مواجهة الموت عند شخصيات على هذا المستوى من الثراء الإنساني ربما تكون أكبر التجارب البشرية عمقا ودلالة.

وأكثرها قربا لروح التراجيديا البشرية التي لا تزال حائرة أمام أحجية الوجود.

هكذا، فإن بدت بالنسبة إليّ هذه المسرحيات في أصل قيامها تنتمي إلى الفترة التي كتبت فيها، لكنها تعبر رغم ذلك عن القلق ذاته الذي يمكن أن ينتاب الكاتب في بحثه الدائم عن الإجابات للأسئلة الكبرى.

وا لهفتاه
أيها العالق بثغر الغيم.
نمى ورد حياتك
مسقيا بأنامل الموت.
بدأ السقي لتوك
متأملا أن تورق المزيد
وأمسيت يا لهفتي متأخرا

رغم كل شيء.

ضوع الزمان لا ينتظر القاطفين طويلا.

حسين علوان علي

واشنطن – مارس – ٢٠٠٤

مونودراما في فصل واحد

بغداد: ١٩٨٩

الممثل: عازف كمان يربو على الستين صالة موسيقى، كراسي العازفين وحوامل النوتة، كان هنا حفل قد انتهى لتوه، وخلا المكان إلا من عازف الكمان المسن وكمانه.

(العازف بعد صمت أليم): إنها النهاية، (إلى كمان)..

أجل هي النهاية يا طفلي..ها هي ساعة الفراق قد دنت، آن لنا أن نودع بعضنا ببساطة وكأننا ما عشنا السنين الطوال متلازمين متحاضنين كالعشاق (نحو الصالة الخالية).

انتهي الحفل قبل قليل وغادر الجمهور مبتهجا، انطلق العازفون إلى بيوتهم سعداء فرحين بعد حفل ناجح، ومن لا يفيض بالبهجة حين يستمع إلى الموسيقى؟، وكيف نستطيع وقف سيل الأنغام

العذاب وهي تسلك الطريق بيسر صوب الشغاف ودون استئذان، حتى هذا الفراغ المرعب، كأنه يلهث الآن بعد رقص متعب (وقفة).

لشد ما يرعبني هذا المحراب حين يكون خاليا، إن مواجهة قاعة ممتلئة بالمتفرجين أيسر على من الوقوف قبالة مقعد فارغ، فحين تمتلئ المقاعد وتبسم الوجوه وترهف الأسماع تصبح رهبتي طمأنينة..، لكن الموسيقى عزفت، ومضت مع المتفرجين، هي تسكنهم الساعة، وسوف يستعيدونها مع أنفسهم متى أرادوا...إنها الألفة يا طفلي، ألفة الموسيقى، لقد مضوا، وبقينا نحن من صنع الألفة نواجه هذا الفراغ الذي يبعث فينا الخواء الحزين.

(مغالبا حزنه)..

لكنني مرغم، مرغم في أن أدع هذا الفراغ يأكلني ليس بمستطاع المرء أن يحيا بمثل الاندفاع الذي كان حين يكتشف أن الأوان قد فات لكي ينتشل شيئا من الحطام الآخذ بالغرق.

خمسون عاما ونحن معا، خمسون يا طفلي وأنت ترقد على كتفي، لا تمل من مراقصة أصابعي ولا ترتوي من عرق عنقي المتصبب، كل تلك السنين وأنت تمتصني، بينما أرقب أنا الزمن إذ يمر، وأنتظر اللحظة التي سأعجز فيها عن العزف ها أنت قد شهدت ذلك فوق هذا المسرح، لقد سكنت أصابعي فجأة فوق أوتارك وفقدت أية قدرة على العزف، تصورت في بادئ الأمر أنه الإحساس الذي طالما عاودني على المسرح حين أشعر في لحظة تخطف كالبرق بأنني قادر

على فعل أي شيء إلا أن أعزف الموسيقى، وتمر تلك اللحظة بسرعة أعجز فيها عن إدراك كنهها أهي الرهبة؟ أم أن الروح تتوقد بكثافة تخالها انطفاء، كنت أترقب تلك اللحظات بشوق لأنني أعلم أنها سوف تمر، فما إن تمر حتى أكون في قمة صفائي فأشرع بالعزف على الفور باندفاع كبير، كأنها السكون الذي يسبق العاصفة.

(خائبا)..

لكن لا..، لم يكن الأمر كذلك، لا بد أنك عرفت مثلي أن الأصابع المنحنية فوق أوتارك متعبة، منهوكة القوى.

(كأنه يشيع أصابعه)..

إيه أيتها الأصابع، آن لعروقك النافرة هذه أن تذوى، آن لك أن تذبلي مثل زهرة. وأنت .. أيها الخريف المبكر، لست تبتسم إذ تساقط الساعة أوراقا من الشجر، كانت بينها أصابع أجادت عزفك يوما ما.

(إلى الكمان)..

خمسون عاما يا طفلي من عمرنا وعمر الزمن ونحن نطلق نغمات إلى أعماق الفراغ، نجسد العشق للعشاق، نفتح النوافذ، نثير سر الرعشات بين المقاعد، نلقى العيون المتلألئة، تحكي لنا خباياها، فلا حواجز إذ يتعلق الأمر بالموسيقى، كنا نضرم الربيع في أحراج الشتاءات الحزينة، إننا الآن بحاجة إلى من يضرم فينا الربيع، آن لنا أن نفترق ونفارق المعجزة.. الموسيقى.

(ساخرا)..

كان على أن أدرك هذه الحقيقة في أي مكان آخر، في الشارع أو المقهى، أن تقذفها نحوي ابتسامة زائفة، أو أن أجدها وسط أكوام الملل والرتابة، لكنني أدركتها هنا، وسط ركامي، كنت كمن طعن على حين غرة، وبقيت حائرا في دائرة الضوء، الكل كان ينتظر، أنا وأنت، الصمت (يشير إلى مقاعد الجمهور) وهم..وأصابعي، لم تكن أصابعي قادرة على الحراك، الصمت تربص في الزوايا والضوء كان يفضح عجزي، أنت تعرف هذه الأصابع منذ خمسين عاما، منذ أن كانت أنامل غضة لصبي مرتبك، بقيت ترقبها وهي تتدفق قوة وعنفوانا، وهي تزداد قدرة على الإبداع .. ما الذي حدث إذن، ولم فقدت القدرة على الحراك، هل انصب فيها جهد السنين الخوالي مرة واحدة وتركها كالجنة، لكم كان الصمت قاسيا، ولكم بدا ذلك الضوء فاجرا .. كنت بينهما كالفريسة.

(يائسا)..

ما الذي كان علي أن أفعل أمام العيون اللامعة في ظلام القاعة، هل يستطيع من أضحي ركاما أن يعزف موسيقى؟ هل بوسعه أن يعزف موسيقى غير موسيقى ركامه؟ كنت مذهولا، كنت خائفا من أن لا أقوى على حملك، ما كان أثقلك فوق كتفي، أردت أن ألتفت إليك..، لم أستطع، لم أكن أجرؤ على ذلك، ثم..ثم انبعثت الموسيقى، كانت موسيقى رقيقة.. خافتة، أخذت تخدش صفحة

الصمت، موسيقى بعيدة تتعذب لكي تسمع، هل كانت تنبعث منا؟.. هل كنا نعزف؟، التفت إليك، استطعت أن أتبينك وسط ذهولي وقد احتضنتك أصابعي، كنتما ترقصان، بلى يا طفلي، كنتما ترقصان، كانت تلك موسيقانا، متى بدأنا العزف لا أعلم، ربما منذ الأزل، تحطم الصمت تماما وضجت الموسيقى.

(بسرعة وانفعال).

كانت أصابعي تصفق الهواء حولها، تهبط على أوتارك، تتتابع قوية راسخة، ترتفع، تتلوى تنتصب كثعابين مقاتلة، ثم تندفع نحو أوتارك كالسيل الهادر، يا لها من رشاقة

(منكسرا)..

يا له من بؤس.. لم يخف عليك يا طفلي أن الرقص الرائع ذاك كان انتحارا، لقد تهدد وجودها، فاستثارت كل الحزين الذي يرقد فيها، انبرت تدافع عن نفسها، أخذت تنفض عنها كل ما امتلكته.،كل ما تبقى من الصبر والإصرار والمثابرة، تفض عنها دمها، لحمها، عظامها، كأنها اختفت، تلاشت (بالغ الحزن).

إنها رقصة وداع مزقتنا معا (مستدركا).. ولكن، من أين تنطلق الموسيقى؟،من أية نقطة ينطلق هذا التدفق المعجز؟، وكيف يتاح لها أن تكون متفردة في الطبيعة، جلية، مضيئة، باهرة كالشهاب النابض في ظلمة السماء؟ هناك في الأعماق نقطة تحار إن كان الانسجام ينبعث

منها أم التلقائية، هي النقطة التي أحسها تومض في داخلي، حين تمسك بكتفي وترنو إلى القوس المتحفز، هي النقطة التي ينحدر منها الطريق إلى أوتارك.

(منتشيا).

وحين أمس النقطة في أعماقي أيها الكمان، لا شيء يستطيع منع الأنغام من أن تتقافز في الهواء، لا شيء حين أمسها يستطيع منع الهواء من أن يتقافز في الأسماع، هناك تغدو أنت قطعة من جسدي، فأحس بأنني أمرر القوس على صدري، على وجهي، أمرره على كياني.. ها هو الدرب ذا سالك نحو أوتارك، ها الدرب سالك.

(بقوة).

اعزفي أيتها الموسيقى.. بلى، بلى، إنني أسمعها أيها الكمان، إنني أسمع الموسيقى وكأني أراها، فأرى خلاياي تنتشر في الهواء (عاليا).

إلهي..يا لها من موسيقى.

(يصفق، ينزل إلى الصالة ويدور بين الكراسي).

صفقي أيتها الأكف، صفقي لعازف الكمان المجيد، لقد أسقط الكثير مما علق به من روحه، صفقوا له يا سادتي وهو يعزف لكم موسيقى الركام، إنكم تطرفون الهواء في أكفكم فتسحقون خلاياي، صفقوا واسحقوا قرونا من الموسيقى.

(يشط به الخيال).

انظروا، تلك هي أذن (بيتهوفن) الصماء.. هل ترونها، وتلك أسنانه التي كان يضع عليها العصا ليسمع رنين البيانو.. ذلك هو أرغن (باخ).. إنكم تحطمونه.

(يخاطب جمهورا متخيلا).

فليرتفع تصفيقكم..، ولكن.. ولكن استمعوا إليه، أصيخوا السمع لصوت أكفكم، قد يبدو دويه للوهلة الأولى متشابها ذا نغمة واحدة، لكنني أعلم مثلما تعلمون وتتناسون أنه مختلف كاختلافكم عن بعضكم.

(يقفز بين تخيلاته).

كلا، كلا يا (جايكوفسكي)، لا تلمس كأس الماء تلك، إنها ملوثة، ستقتلك، لا ترفعها إلى فمك، لا، السهام لا تطيش أبدا، إنها تنطلق دوما إلى الصميم، صفقوا للسهام.

(يقلد متفرجا ما).

يا للروعة، يا لروعتك أيها العازف، يا لها من موسيقى، يا للتناسق يا للتناغم جئناك يا سيدي هاربين من رتابة الحياة، وها أنت قد أبهجتنا بأنغامك، ها نحن نفيض بهجة.

(يقلد متفرجا آخر). ليتنا نعيش فعلا ذلك الربيع الذي صورته لنا موسيقاك، ألم يكن هو الربيع؟ والبحر، ألم تكن تلك الأنغام عن البحر الأزرق الذي يمتد إلى ما لا نهاية؟

(يعود إلى نفسه).

ما هي الموسيقى؟، إذا كان عليكم أن تسألوا فحسب فإنكم لن تعرفوا الإجابة أبدا، كنا نحكي لكم أنا وكماني حكايات عن الربيع، وأي ربيع كان! ليتكم علمتم ما اعتمر في داخلي، إنها المرة الأولى التي تكون أصابعي مجهدة إلى الحد الذي تعجز عن العزف، أصابعي التي كأنها ما وجدت إلا لتخلق الموسيقى، أصابعي التي بها أتكلم، أحيا، بها أتنفس..، لشد ما ارتعبت حين أدركت أن الفراق قائم بيني وبين طفلي، ماذا كان عليّ أن أفعل وأنتم تنتظرون العزف مني؟، هل كنتم سترضون لو أعدت الكمان إلى الحقيبة ورفضت العزف؟

أنزلوا إلى الشارع، اختلطوا ببعضكم، اضحكوا، افرحوا، وتحدثوا عن أي شيء ففي لحظة ما سوف يصفعكم الإحساس بالنهاية، كان عليّ أن أعزف بأي ثمن، حتى لو كنته، أخذت أنتقض أمامكم وأخذ كماني يرجع إلى صدي انتفاضي، تلك كانت موسيقى الزهور التي تنبت كالسكاكين في رحم الأرض، موسيقى البحر، البحر، منديل أزرق ملقى، شجرة مرجان، موسيقى الحزن الذي يصرخ في زخم السعادة.

(يحضن الكمان).

ضمني إليك، ضمني إليك يا طفلي، إنه جرح أن أفقدك، آه لو كنت أعلم أننا كما التقينا سوف نفترق، كنت أدخرت ما يخفف عني وطأة الإحساس بالندم، كنت سأفهم، كنت قد كافحت لكي أفهم

أن لا بد للأشياء أن تذوى ولا بد للعنفوان من نهاية، ولكن كيف لنا أن نعلم أننا يمكن كذلك أن لا نفهم؟.أنه هدر ليس إلا..، أن أفقد يعني أن أصمت، ولماذا يتحتم عليّ الصمت وأنا لم أقل شيئا بعد..، إيه أيتها الموسيقى، أنت باقية دوما في الذرى ولا تعنيك نهاية عازف كمان..طوباك أيتها الخالدة أما نحن يا طفلي، فلنمضِ لنحيا الوداع.

(يخرج كسيرا مع كمانه) النهاية.

خلال عملي لسنين طويلة على خشبة المسرح كمخرج وممثل وجدت أن الإغراق في وصف المكان من قبل المؤلف يمثل محاولة لتحديد المخرج في منطقة لن يكون ملزما بالخضوع لها، ويبدو الأمر بالنسبة إلي منطقيا حين يتعلق بتناول إبداعي مواز يقوم به المخرج بما يمثله من ذات ثانية تنفذ إبداعها الخاص انطلاقا من نص المؤلف، لذلك قاومت في داخلي الرغبة لإثراء الوصف المكاني مكتفيا بوصف ما هو ضروري فقط وما هو مهم من الإكسسوارات بالإضافة إلى الوصف الرمزي للشخصيات، تاركا البقية للمخرج الذي لا يمكن أن يستورد خياله، مؤكدا في الوقت ذاته على تثبيت الحالة الانفعالية التي تكون عليها الشخصية في زمن الفعل.

رامبو-الأزهار والألم

بغداد: ١٩٩١

مأساة مسرحية

الشاعر: الشاعر الفرنسي أرثر رامبو

إيزابيل: أخته

فيتالي: فتاة صغيرة

طيف الأم: والدة الشاعر

طيف فرلين: الشاعر الفرنسي

(المشهد الأول)

غرفة مستشفى في مرسيليا، الشاعر يرقد على السرير مبتور الساق، عكازه جنبه، نافذة تطل على الشارع، باب في إحدى الزوايا، منضدة عليها آنية فيها أزهار ذابلة، إيزابيل تغفو على الكرسي.

الشاعر: لقد بدأ ذلك في ظل ضحكات الأطفال، وأن ذلك سوف ينتهي بهم، لا شعر لا جدوى من الشعر حين تغدو أنت القصيدة.

(صمت، ثم لإيزابيل النائمة).

لا زلت نائما أيها الملاك، أجل ينبغي أن تنامي أختاه، ليس عليك أن توصلي الليل بالنهار مستيقظة، تدارين أخا يتورم، يزداد تورما كل لحظة.

(صمت).

النوم، يا لدفء الكلمة منذ متى وأنت لم تعرف للنوم طعماً.. يا جسدا يأكله الشلل؟، لم تذقه أيام كان بين يديك..أضعته في ضجيج أيامك القديمة..أضعته إلى الأبد.

الفجر يضئ النافذة.

أكاد ألا أحس بك يا فجر مرسيليا، ها أنت ذا توقظ كل من في المدينة، لكنك تقف متوجسا عند نافذتي، هل أزف الوقت الذي ستعتم فيه هذه النافذة؟ امض أيها الفجر.. لا تلتفت، لن تجد هنا شيئا يستحق أن توقظه، هاهنا كسيح بائس.

(ساخرا).

يا للنهاية، يا لها من مكافأة حزينة لحياة، أيام معدودات مرت منذ أن فارقت ظهر الحصان في الحبشة، أي منعطف بين جبال (هرر) لم يألف وقع حوافر حصاني؟ طواف محموم متواصل، الطواف الغريز، اللعنة، محظوظ أنا لأنني ما زلت احتفظ بساقي الثانية، ألست محظوظا لأني ما زلت أمتلك ساقا لم تصل حد البتر؟

(يمس ساقه).

ترى أتستطيعين أن تعدي الخطوات التي خطوتها خلال عشرين سنة خلت، العشرين التي تفصلني عن الفتى في (شارلفيل)؟ أهي بعدد الأنفاس؟ بعدد النبضات هي؟ هل هي بعدد خلاياك التي تموت تباعا؟ إنها بعدد القصائد التي كان ينبغي أن أكتبها، أجل، فإن كانت كل خطوة للأمام ترافقها شهقة، وكل شهقة ترافقها نبضة، فإن كل نبضة من القلب ترافقها قصيدة لم تكتب (تغمغم إيزابيل حالمة).

إيزابيل: أماه

الشاعر: من؟ إيزابيل

إيزابيل: هات الدثار يا أماه

الشاعر: إنها تحلم

إيزابيل: البرد.. البرد

الشاعر: يا للنداء لمن الدثار أيتها العزيزة؟ إنه لا ينفع جسدا يتسلل إليه برد الموت، أعرفها جيدا لسعات البرد في صباح مثل هذا، أنت من يحتاجه ولكن يا للنداء، هكذا تعبث فيك الأشباح أيها الحلم.

إيزابيل: ألم تجلبيه؟ البرد يؤذيه..

(تتململ، يمس الشاعر يدها فتصحو).

آرثر، إنه الصباح.

(تنهض باسمة نشطة، مشرقة كالشمس).

صباح الخير.

(الشاعر): باسما.

صباح الخير.

إيزابيل (تمس يده).

يداك باردتان.

الشاعر: ويداك أظنهما دافئتين.

إيزابيل لكم هو مفرح أن أراك مبتسما هذا الصباح.

الشاعر حقا، ترى كم بسمة بقيت لي؟.

إيزابيل: إلهي، يا للسؤال المختبئ خلف ابتسامة!.

(تهم بترتيب المكان)

أخبرني الآن، هل أنت بحاجة إلى شيء؟

الشاعر: كلها وحقك أيها الملاك

إيزابيل: يا للطمع، يكفيك الآن منها كأس حليب.

الشاعر: كلا لا أرغب به.

إيزابيل: لماذا؟

الشاعر: الرغبات تموت فيّ.

إيزابيل: ألم تنم ليلة أمس؟

الشاعر: ما أغمضت جفنا قط، هذه رغبة أخرى تموت.

إيزابيل: لقد أجهدك السهر ليس إلا، لا أطلب منك الآن إلا أن تشرب كأس الحليب.

(تصب له كاسا من على المنضدة).

الشاعر: أريد كأسا ثانية تغرفينها من نهر الشارع هناك، حيث تلهج مرسيليا بالحياة.

(ممتنعا عن الشرب).

لا فائدة، لقد قضي الأمر.

إيزابيل: (معيدة الكأس إلى المنضدة)

ليس لك أن تنطق بذلك.

الشاعر: الداء يستفحل، والشلل يتصاعد فيّ.

إيزابيل: أنسيت وعد الطبيب بالشفاء؟

الشاعر: إنه وعد وحسب لن تستطيع عيونه المدربة أن تخدعني، إنه يائس تماما، ولكن أنت؟

إيزابيل: ماذا؟

الشاعر: هل أنت يائسة؟

إيزابيل: (معذبة).

أتراني كذلك؟

الشاعر: (بإصرار)

هل أنت يائسة؟

(يدير رأسها إليه)

إيزابيل: (وفي عينيها أطياف الدمع)

انظر إلى عيني، ستجيبانك

الشاعر: (يتملى في عينيها أطياف الدمع)

أراهما تتألقان بضوء النهار، لكن واحسرتاه، بماذا ستتألق هاتان الزمردتان عند الغسق.

إيزابيل: (بألم آرثر)

الشاعر: الغسق الذي أحياه.

إيزابيل: (ويدها على فمه): اسكت.

الشاعر: (مندفعا عنها بجهد بالغ إلى عكازه)

انظري إلى الذي قرر العودة إلى الوطن هذا الصيف للزواج، أتراني كنت أدرك أنني لن أحظى به أبدا لقد انتهت حياتي، وداعا للزواج، وداعا للعائلة، وداعا للمستقبل.

إيزابيل: (معاتبة)

ما هكذا كان يتكلم آرثر الذي أعرفه، آرثر الأمل

الشاعر: سآمل، لا شيء يستطيع أن يسلب مني الأمل، ولا كومة من اللحم المتورم حتى، هذه هي الجذوة المتوهجة أبدا، ولكن انظري إليّ؟

(تخفض عينيها)

قلت انظري يا إيزابيل إليّ

(تنتابه نوبة من الألم)

ها هو الألم يبدأ، ها أنذا آمل.

(يصرخ عاليا)

إيزابيل: رباه، سأنادي الطبيب.

(تهم بالذهاب)

الشاعر: لا، لا تذهبي، ابقِ معي.

إيزابيل: ولكن؟

الشاعر: سأضع حداً لبؤسي إن تركتني، لا أزال أستطيع تحريك يدي، انظري، يمكنني أن أصنع بهما أنشوطة ألفها حول رقبتي.

إيزابيل: لكم ترعبني بهذه الظنون، أنا معك، لن أتركك، أنا لا أعرف الرحيل.

الشاعر: (يحضنها).

رباه، رباه، مالي كنت أراك مصراً على أن تستعيد الماضي، لن يزيدنا الماضي إلا عذابا...انسه.

الشاعر: ليتني أستطيع.

إيزابيل: إنك الآن بين أيدي رحيمة تعنى بك، وتهيئ لك أسباب الشفاء، وعما قريب نغادر هذا المكان معاً، فنعود إلى البيت في شارفيل، ونكون بين الأهل ثانية.

الشاعر: العودة. ليتها تكون فحسب أتنشق هواء الاردين ثانية، أعب منه حتى الثمالة، أنا الذي غادرتها دون أن أفكر حتى بالتفاتة ألم يكن لي شباب بطولي هناك حد الكتابة على أوراق الذهب إنك الآن شابة يا إيزابيل، ستمشين تحت الشمس بينما سأمضي أنا تحت الأرض.

إيزابيل: ولكن، هكذا نكون جميعا.

الشاعر: السعادة مقدرة لكل الكائنات، ولكنها اختيار، فهل اخترنا؟، وعرفنا أن نمنح حياتنا كاملة كل الأيام؟

(بنشوة أليمة).

كنت أمضي تحت السماء وقبضاتي في جيبيّ المثقوبين، حالما كنت أقرض القوافي، وكان لنجماتي في السماء حفيف ناعم، وأنا جالس على حواف الدروب كنت أصغي لأماسي أيلول وقطرات من الطل تندي على جبيني، وسط الظلال الذاهلة كنت أقفي وأشد مثل عيدان سيور حذائي الجريح، وإحدى قدميّ قرب قلبي.

أتراني كنت أدرك أنها سوف تقطع؟، لو سألني أحد عن عذابات البتر، لقلت، دعهم يمزقونك إربا، دعهم ينتفونك نتفا، ولكن، أبداً، لا تدعهم يبترون ساقك، فالموت أهون من عذابات البتر.

إيزابيل: إن كنت لا تجد باساً في أن تعذب روحك، فإن عليك أن تفكر بي، أنا معك منذ أن ودعت هذا المستشفى، قبل شهر مضى، ولم أفارقك للحظة، وخلال ذلك لم أكف عن التطلع إلى الأمام... المستقبل، إلى ما سوف نؤول إليه، وكلي أمل أننا سنجد الخلاص، بينما تعد أنت اللحظات لتعود إلى الماضي، (الحبشة)، (أوغادين) قوافل محملة بالبضائع، الحمالون، على الرغم من علمك أن ذلك يجديك نفعا، (حانية).

هل استغنيت عني؟

الشاعر: وكيف أستطع الاستغناء عنك أيتها الجميلة، اقتربي مني يا إيزابيل.

(تقترب، يتأملها)

أخلصيني القول ما دمنا قد بعثنا في طلب الكاهن من أجل الأسرار الأخيرة.

إيزابيل: أنت طلبته.

الشاعر: قد طلبناه معا، هل أنت مؤمنة؟

إيزابيل: أجل أنا مؤمنة.

الشاعر: هل لي أن أقبلك.

(تحني رأسها، يقبلها).

هكذا يا إيزابيل، إن علينا أن نرتب الغرفة، ينبغي أن نضع شراشف بيضاء والزهور، لا تنسي الزهور.

إيزابيل: إلهي، على أن أحضر زهورا جديدة بدلا من الذابلة.

الشاعر: أجل، اجلبي زهورا جديدة، إنني أرغب في ذلك.

إيزابيل: (تعدل هيئتها).

سأكون خارج المستشفى لبعض الوقت، ربما سأتأخر قليلا للاتصال بأمنا، عدني أنك ستبقى هادئا ريثما أعود.

الشاعر: اذهبي يا إيزابيل، (تخرج بعد التفاتة طويلة إليه) اذهبي يا إيزابيل، لن يطول الأمر بدورة الزمان حتى تعودي وبين يديك تحتضر الأزهار الأخيرة.

(وقفة).

هكذا، أنا مريض جدا، ذلك هو ما كان عليه زمني، أحزان وغربة، اغتراب ومرض، وماذا بعد، أي معني كان لكل ذلك؟، ما المعنى في أننا نولد ونحيا، ثم نموت، عبر كوة من الزمان، يتهيأ لأن تجترح فيها الكبائر والآلام بأيدينا أو رغما عنا، أما كان لأنهر الشهيق الدافقة هذه أن تكون دون تعاسات أو رغبات، دون آلام أو كراهية.لماذا كل ذلك الألم؟،كان على الموت أن يأتي مرة واحدة، ضربة سيف واحدة لا غير... ليكف العالم بعدها من أن يبدو مهلهلا مثل فزاعة بأسمال بالية ما عدت الآن أخشى شيئا، لكنني لو كنت كذلك لقلت إنني أخشى أن الحياة قد لا تمثل معنى كالمعنى الذي يمثله هذا الباب إزاء الغرفة.

(بسخرية مريرة).

كم من الزمان مضى وأنت لم تعد رائيا؟ هل تستطيع الآن؟ كن رائيا ولو لمرة أخيرة، لتدع نثار الرؤى ينهال عليك مثل ندف الثلج.

(صوت رياح بعيدة).. أو يعصف بك مثل ريح لما تزل تزعق منذ الأزل عاليا.

أقول كن رائيا.

(صوت الأم): من بعيد

آرثر

الشاعر: هذا الصوت يبعث الرعدة في أوصالي.

(صوت الأم قويا)

آرثر

الشاعر: إنه صوتها.

صوت الأم: بني

الشاعر: (عاليا).

أماه.

(ينفتح الباب بفعل ريح قوية، يظهر طيف الأم)

الطيف: (قويا، صارما، متألما)

ها أنت تعود لي أخيرا.

(يدور الطيف خلال المشهد مصاحبا بصوت الريح، فيتبادلان الحوار دون التطلع إلى بعض).

الشاعر: أجل إنها العودة في النهاية، بأجساد مشلولة، دون أجساد، هي العودة دائما.

الطيف: ما أبعد ما مضيت يا بني، لم تكن أول الراحلين في هذه الأسرة الشقية، ولكنك الأقسى، بنيتك أملا إذ فقدت أباك وأخاك المارق (فريدريك)، بنيتك في أعماقي قطعة قطعة، كأن الخوف من فقدانك كان يدفعني لأن أتشبث بك حتى بأظافري.

الشاعر: لم تزل كسِرها مغروسة فيّ.

الطيف: لأنك مني وإليّ تعود، لأنك نسيج من أحشائي، وفيك من قلبي وروحي ما يهدد فيك أي اختيار، أنت ملكي.

الشاعر:

(بألم شديد).

انظري إلى الجسد الذليل الذي أعطيتني، هل كنت أرضى أن يتفسخ هكذا لو كنت أملكه؟،لسنا نملك شيئا، إننا نمر فحسب، مثل هذه الريح.

الطيف: لم أكن أحفل في لعبك البارع بالكلمات، كنت أسمع أصداءها تعلو في فرنسا يوما بعد يوم، بينما كنت تكدح أنت في الحبشة، ولو كان لها أن تصدح بقوة كل أجراس الكنيسة، فإنها لن تعادل رغبتي في أن تكون جنبي، فأسمع جرس صوتك، أجل، لسنا نملك أنفسنا، لكن وجه الحياة سيكون مريعاً، إن لم نملك شيئا من بعضنا.

الشاعر: حنانيك أيها الطيف.

الطيف: أنا مخلوق نذر لكل أنواع العذاب، ما الذي جنيته من عمري الطويل الذي مضى، جنيت زوجا هجر بيته دون ندم، جنيت بيتا كان قدري أن أعيله وحدي، جنيت أبناء ساموني العذاب.

الشاعر: جئت تفاقم عذابي أيها الطيف.

الطيف: كأنني ولدت لأشقى.

الشاعر: فانظري إذن لما ولدتني من أجله.

الطيف: ليحمك الله يا ولدي، كنت تفيض حياة يوما ما، تتدفق نبوغا كان يبعث الفخر لأنني ولدتك، ولكن، ما أسرع ما

استنفذت ما كنت أفاخر به، فأسلمت شراعك للعصف بين ليلة وضحاها، ما أستطعت أن أفهم السر في ذلك، وأشك في أن أحدا ما سوف يفهم..

الشاعر: ومن ذا يستطيع أن يفهم أصلا؟.

الطيف: (منسحبا)، لتعد إليّ يا بني، لنلملم الأحزان معا، لا نملك غير أن نفقد الأشياء، نفقدها تباعا، نفقدها سراعا، وكأننا نمتلكها لنفقدها فحسب.

الشاعر: (عاليا).

أماه، يا للكلمات، يا لهذا البرق يضئ الظلمات يا لهذا الوقع يرعد الهواء، أعطني إياها إذ ترحلين، أعطني الكلمات، ليس يكفيني أن أحس النضارة ترتقيها، بل أن أمس الجذر هناك.. حيث تولد النضارة.. أعطني الكلمات.

(لم تزل الريح تضرب في أعماقه).

لو قلت أيا طيفها أمهلني لحظة قبل أن تعصف رياحك في أشرعتي البالية، لحظة ألملم فيها نفسي وأحزاني، ولكنك تمنّ عليّ بها، يهدأ، (يتلاشى صوت الريح) ها هنا أجدني أحيا سنيّ حياتي كلها في يوم واحد، ها هو الخريف قد حلّ، (قاربنا المنتصب في الضبابات يستدير نحو المرفأ الآخر،كنت أحيانا أرى السماء شواطئ لا نهاية لها، سفينة ذهب فوقي ترفرف راياتها الملونة مع نسائم الصباح، لقد خلقت كل الأعياد، كل الانتصارات، كل المآسي، حاولت أن أخترع ورودا

جديدة كواكب جديدة، أجسادا ولغات، خلت أني حزت على قدرات فائقة للطبيعة، حسنا، يجب أن أدفن خيالي، وذكرياتي، مجدا جميلا لفنان تبدد، وأخيرا، سأطلب الصفح، لكن لا بد من يد صديق، من أين التمس النجدة؟).

(يظهر طيف فرلين مصحوبا بصوت المطر، يظهر نحيلا، مبتلا، معذبا) أين هو صديق الخريف الأخير؟

(يتصاعد صوت المطر).

ها الأمطار تمرح في الخارج، المدينة تغتسل، والقلب القديم متروك هنا، أواه يا قلبي المسروق كيف العمل، هكذا دائما، تأبى أن ترمم مساءك الزنابق، (ينتبه إلى طيف فرلين).

ها أنت ذا ثانية يا فرلين، طيفك التعس يهمي دائما مع المطر، أتراك ذلك الصديق؟.

الطيف:

(يكمل قراءة القصيدة).

أواه يا صوت المطر الخافت على الأرض على السطوح، يا صوتا للقلوب المتعبة المتألمة، الألم أن لا أعرف لم، دون أي حب أو كره أجد هذا الحزن في قلبي؟.

الشاعر: مرحى يا ابن المطر، يا لعذوبة هذا الحزن، (يمضي بتذكر أياما أليمة ماضية) ولكن هل ينام المسدس الآن وديعا بين يديك ؟، ليس عليك إلا أن تحفزه بفورة النجيع، نجيعك أنت، أنت

تعرف جيدا كيف هو ملمس الزناد بين الأصابع، لقد خبرته، أخرج كفك من جيبك، ابسطها، اشهرها في وجهي، إن فيها خمس أصابع للزناد كانت أنامل لريشة، دم الحروف ينبجس من معصمي يا ابن المطر، انظر إليّ، إنني الآن لا أساوي ثمن إطلاقة، أتعلم؟، كان ينبغي أن أتردد ألف مرةّ قبل أن ألحق بك إلى (بروكسيل) في ذلك اليوم المطير البعيد.

الطيف: في بروكسيل تركتني حطاما، وكنت حينذاك تلمس الأشياء لتتركها حطاما.

الشاعر: حينذاك؟

الطيف: هل عرفت الآن ما الذي يعني أن يكون المرء حطاما؟.

الشاعر: لم نكن يوما الحياة، الحياة الحق غائبة.

الطيف: فما هو إذن ذلك الذي كان؟

الشاعر: حلم، ربما.

الطيف: ما زلت تجزم مرة، ومرة....

الشاعر: (إن رؤية العدالة هي بهجة الله وحده)

(بصمت).

تكلم، لم أنت صامت؟، من أي جب تحرر طيفك ليكبلني برؤياه؟، كان في جسدك الناحل بركان يفور ليتفجر، ألم تكفنا باريس ولندن وبروكسيل فضاءات للخصام والجنون هل جئت تقاضيني ؟، تكلم.

الطيف: الحزين يرقد في الأعماق، إننا نرحل عن الدنيا بخزائن مكبلة في الأعماق، لأن أكثر ما فيها يتلاشى لو لامس الهواء،حين لمحتك عند باب بيتي في باريس أول مرة، أدركت أن تلك العينين الزرقاوين، كرتان تتدحرجان إلى اللهب، وإن ذلك الغليون في يدك إنما يدخن تبغا من نفسه، وإنما الأوراق التي حملتها كانت قصائد من كراس رجيم، لقد صعقت، ولكنني ما أردت أن أفهم، وجدتني أصرخ أمام الشعراء (البارناسيين) وانا أرمي قصيدة المركب السكران أمامهم..اقرأوا، اكتشاف فرلين، شاعر مرعب من شارفيل.

(يلقي بإعجاب). وإذا كنت أرغب في ماء من أوربا، ففي نقعه من الماء الأسود، حيث مع الغسق المعطر، يفلت ولد مقرفص مملوء بالحزن مركبا هشا كفراشة من أيار.

(مستعيدا وقع القصيدة).

الكلمات تخترق، والنفس الثمينة مشرعة للاختراق، طالما تمنيت في تلك اللأيام العصيبة، إلى كل شعراء فرنسا إلا بول فرلين.

الشاعر: (متعجلا الصدام) فوجدتني عقبة.

الشاعر: عقبة...لنفسك.

الطيف: يا للنفس! يا للنفس وما تجترح لقد أفلحنا في أن نكون قصصا قديمة معيبة تروى بين الموائد.

(صمت وتوتر).

كنت تصطنع أسباب الخلاف، تفتعلها بتفرد فتضرم النار الهشيم ولن يعنيك أن يكون ذاك في أي مكان، أمام حفنة من أشباه الشعراء، أو في أية زاوية من أي شارع، لقد نبذني الأصدقاء، وهجرتني زوجتي، وفقدت كل ما أستطعت بناءه،.. لقد ضيعتني يا آرثر.

الشاعر: ليس الفعل حياة، إنه طريقة لا فساد قوة ما.

الطيف: الفعل هو الحياة.

الشاعر: لا حياة فيما نظن (الحياة الحق غائبة).

الطيف: لا سطوة لما نظن أن له سطوة.

(بسخرية مريرة).

أية تعاسة؟، الذكريات تفيض في نفسي، وأحس بأن دفئها يخالطه الألم، حسنا فعلت إذ لحقت بي إلى بروكسل في ذلك اليوم المطير قبل سنين بعيدة، بعيدة جداً، لتشهد بنفسك مسك الختام.

(ظلام تدريجي يستمر معه صوت المطر).

(المشهد الثاني)

(غرفة فندق في بروكسل، قبل عشرين عاما).

فرلين: (محتداّ).

لن ترحل، لن أتركك ترحل هذه المرة، ما دمت قد لحقتني بنفسك إلى بروكسيل.

الشاعر: هل تطلب مني البقاء وترضى لنفسك الرحيل؟

فرلين: لقد دفعتني إلى ذلك دفعا، تماديت في السخرية مني، كنت تريد إذلالي، وما كان ذلك إلاّ لأنك أردت أن نفترق.

الشاعر: فتتركني وتهرب إلى بروكسيل؟

فرلين: (مهتاجا).

أليس هذا ما كنت تريد؟، لقد طلبت الصفح من زوجتي (ماتيلد)، بعثت إليها لتنضم إليّ، لكنها رفضت، هددتها بالانتحار، غير أني وصلت في إيذائها حدا يبهت أمامه التوسل أو التودد، تسقط أمامه كل توبة، أوشكت أن أخنقها ذات يوم بيديّ هاتين اللتين رميت بهما طفلي الصغير إلى الحائط، وحين غفرت لي جنوني وقبلت بعودتي إلى المنزل، تركتها في القطار عند أول محطة، إذن، فإذا كنت قد طعنت، ليس لك أن تلمس المقبض ثانية، لن ترحل إلى باريس.

الشاعر: كأنك تملكني؟ سأرحل إلى باريس.

فرلين: لماذا؟

الشاعر: لن نعاود الكرة ثانية.

فرلين: ولكن لم؟

الشاعر: لقد مللت يا فرلين، مثلما مل هذا المطر مخابئه فمضى ينهال متهالكا على القلوب الكئيبة، لن نستطيع أن نمضي معا إلى النهاية، لسنا نسير في درب واحدة.

فرلين (شديد اليأس).

أنا إنسان بائس.

الشاعر: لقد استطعت منذ زمن بعيد أن أحصل على محبرتك التي كتبت بها ديوانى "قصائد زحليه" كانت المحبرة كنزا بالنسبة لي، رمزا احتضنته في أعماقي، وحافظت عليه، والآن لا أريده أن يتعفر فى التراب.

(يخرج المحبرة)

انظر.. إنها لم تفارقنى يوما، ولن تفارقنى لو رحلت.

(يخرج نرلين من جيبه مسدسا).

الشاعر: ما هذا، ما حاجتك لمسدس.

نرلين: إنه لي ولك، ولكل الناس.

الشاعر: اعطنى المسدس.

فرلين: ابتعد.

(يبتعد الشاعر، ثم كمن خسر كل شيء)

هل يمكن لإطلاقة أن تحسم أمرا ما ؟، إنها تعترض الطريق فحسب، بينما حلم الحسم مطرقا فى الهواء.

واضعا المسدس على صدغ الشاعر.

لو أحسست بإطلاقة تخترق صدغك، أتراك ستفكر بأنها اختراع غبي!، إحساس يسبق الدماء بلحظة؟ أو أنها اعتراض أحمق لا غير؟، لكنه اختراع أرحم أحيانا من اعتراض منظم وطويل فى درك المسميات، فى عذاب الكلمات والرغبات المقيتة، ألا يكون أكثر رحمة من قذارة(الخشخاش) الملعون وبؤس الثمالة العتيق؟

(بلا أمل)

السعادة حلم، الحب حلم، والقصائد أضغاث أحلام، ترى!، إلى أى مدى يستطع المرء أن يمضي بجعبة الأحلام هذه؟

(يصوب المسدس نحو الشاعر)

لن يستطيع المضي أبعد من هذه الإطلاقة.

يطلق على يد الشاعر التي تمسك بالمحبرة، إظلام يشتد فيه صوت المطر.

(المشهد الثالث)

(غرفة المستشفى، يختفي طيف نرلين)

الشاعر: وكأنه استفاق لتوه من كابوس مرعب.

أطلق يا نرلين، أطلق الرصاصة الثانية، الدماء فى يدي تمتزج بمداد المحبرة، الألوان فى الهواء، أسود أبيض.. أسود أبيض.. إنها ألوان الحروف، (يتلاشى صوت المطر)

امض، امض أيها الطيف إلى حيث لا تستطيع، تلاش مع المطر الراحل يا نرلين، يا ابن المطر، فهناك عند قلعة بنيناها واهمين نزفنا القطرات الأخيرة.

(عاليا)

إيزابيل، أين أنت إيزابيل، أين أنت أيها الطيب، لماذا تتركوني أقاسي آلامي وحيدا؟

(تمد فيتالي الصغيرة رأسها من الباب).

كيف السبيل لأصدّ عني تلك الرؤى، وهذه الآلام؟

(ينتبه إلى الباب)

من هناك؟

(تسحب فيتالي رأسها)

من أنت؟

(صمت قصير، تدخل فيتالي بهدوء متجنبة النظر إليه)

فيتالي: يوم مشرق وجميل، غرفة مرتبه ونظيفة.

الشاعر (مأخوذا بها)

من أنتِ؟

فتالي: لكن الأزهار فيها ذابلة.

(تختلس النظر إليه)

الشاعر: لست ملاكا للموت، لو كان الموت جميلا مثلك، لما وجدنا أحدا يسير فى الشارع.

فيتالي: أبي يرقد فى الغرفة المجاورة.

الشاعر: يا لأسى!

فيتالي: ونحن اليوم نزوه.

الشاعر: هكذا، ما اسمك أيتها الصغيرة؟

فيتالي (دون تردد)

فيتالي.

الشاعر: فيتالي، أي اسم جميل، لماذا جئت إلى هذه الغرفة يا فيتالي وتركت أباك؟

فيتالي: لماذا كنت تصرخ كل ذلك الصراخ؟

الشاعر: هل كنت تسمعينه؟

فيتالي: كلنا سمعناه، هل تتألم كثيرا؟

الشاعر: آلامى لا تحمتل.

فيتالي: ولماذا تتألم كل هذا الألم؟

الشاعر: إننى أتألم بسبب ساقي.

فيتالي: هل أستطيع الجلوس؟

(تجلس بدون انتظار الإذن)

أبي يتألم أيضا، ولكنه لا يصرخ، يبدو أنه يتماثل للشفاء، هكذا يقول الطبيب، هل تعرفه؟ الرجل العجوز ذو الشعر الأبيض، (تأخذ بالضحك) إنه يشبه موزع البريد فى حيِّنا، وقد سألته أول ما رأيته مرتديا صدريته البيضاء إن كان يوزع الرسائل فى المستشفى، نهرتني أمي قائلة: إنه الطبيب أيتها المغفلة (تضحك بطلاقة)

بعدها رأيت رجل البريد فى الشارع، صحت به: أين صدريتك البيضاء أيها الطبيب، أجبت نفسي مثلما قالت أمي: إنه موزع البريد يامغفلة، (تأخذ بالضحك ثم تهدأ)

لماذا نتألم؟

الشاعر: لا أعرف يا فيتالي، لا أحد يعرف لماذا الألم!

فيتالي: كيف حدث أن آلمتك ساقك؟

الشاعر: لقد جرحت حين كنت أعمل فى بلاد بعيدة، ولأن البلاد تلك تخلو من الأطباء فلقد تلوث الجرح وانتشر الداء فى ساقي كلها.

فيتالي: وهل تخلو البلاد تلك من موزعي البريد؟

الشاعر: ومن أولئك أيضا.

فيتالي: ما أعجبها من بلاد!

الشاعر: حقا هي بلاد عجيبة.

فيتالي: لم أنت وحيد؟

الشاعر: أنا؟، لقد كنت كذلك دوما.

فيتالي: أليس من أحد يعنى بك؟

الشاعر: أختي إيزابيل ترافقني، لقد ذهبت لتجلب أزهارا جديدة.

فيتالي: هكذا، حسنا، إن عليّ أن أذهب، سوف يفتقدني أبي.

الشاعر: ابقي معي قليلا؟

فيتالي: هل ترغب فى أن نصبح أصدقاء.

الشاعر: أجل أرغب فى ذلك، كيف أرفض عرضا بهذا السخاء.

فيتالي: سأزورك ثانية.

الشاعر: ليتها تكون دون نهاية.

فيتالي: سأجلب لك أزهارا.

الشاعر: يمكنك أن تعوضيني عن كل الأزهار، مثلما يمكن لزهرة أن تحتوينا جميعا.

فيتالي: إلى اللقاء يا سيد

الشاعر: رامبو.

فيتالي: إلى اللقاء يا سيد رامبو.

(تخرج من الباب).

الشاعر: وداعا يا فيتالي، كان ينبغي أن تأخذي قلبي أيتها الصغيرة، لكي يغسل، هل قالت إن هذا صباح مشرق وجميل؟ فيمن إذن كانت تهدر الأمطار وتعصف الرياح؟

(يحاول النهوض).

لنرى هذا الصباح الذي أعطينا، صباح فيتالي الصغيرة، لنعيه، لعله الآن ينساب أمام النافذة كالنهر الدافق، لنراه من النافذة، حتما إن كل ما هناك ينبض بالحياة حد الوجع، بينما تذوي فيك الحياة حد الموت (ينهض جاهدا بالعكازات إلى النافذة)

إنها الشمس، فؤاد السماء، هذه الرقة لم تعتد عليها حين كنت تكدح فى الأراضي الحارقة، الشمس الرقيقة ترمقني دون مبالاة، أجل لها أن تفعل ذلك فكل ما تحتها فان، ولكن، أيتها الشمس الباهرة، ألا يبدو الموت متأخرا على أشلائى الكسيحة؟! أي معنى كان لكل ذلك ألم أكن أستنزف نفسي دون جدوى؟ كان على الموت أن يأتي ليضرب ضربة واحدة ينتهي بعدها كل شيء.

(أمام النافذة)

إنها الحياة، وهي الحياة أبدا، يا لهذه المعجزة، لماذا نصر على ألا نحس بهذا الإعجاز إلا حين نوشك أن نفقده، العربات تجري، إنها تجري إلى ما لا نهاية، الناس مسرعون، هكذا هم دائما يخافون ألا يلحقوا بالقليل الذي بقي من الكثير الذي ذهب، أتراهم يرون الأشجار الباسقة المصطفة على الجانبين؟ مثل ملوك خضر زاهية، لكم هو محزن أن أفارق كل ذلك.

(يعود إلى السرير)

لكم هو محزن أن أفرق الشمس.

(يموت النهاية)

فان كوخ الطريق إلى الشمس

عمان ١٩٩٥.

الشخصيات

الفنان: الرسام الهولندي فنسنت فان كوخ.

مارغوت: امرآة أحبها الرسام.

(مكان ما بين معيشة ومرسم، الرسام يضع لفافة على أذنه)

الفنان: رسائل رسائل ؟! أي نفع من كل تلك الرسائل؟!، ألف رسالة أرسلتها إليك حتى الساعة يا (ثيو)، يا أخي الصغير، حروفها تطايرت طوال الطريق من هنا، من (آرل) حتى متجرك البهيج في (مونمارتر) بـ (باريس)، ألف رسالة ممهورة بأحرف اسمي (فنسنت فان كوخ)، ذلك التوقيع في أذيالها يبدو مثل زورق ملقى على شاطئ مهجور، أحرف تناثرت على سبعمائة لوحة عندك، هي الأخرى مهرت بالزورق المهجور.لكن أكوام اللون تلك كانت بلا جدوى، وكذا أكوام الرسائل، يا لهذا الهدر يا أخي البعيد !!، ليتك تستطيع القفز إليّ، لترى فوضى عذابي، لتلمها، الحق بي الساعة، أحس بأنها

الهاوية، النار تكوي رأسى يا ثيو البعيد، وفى صدري يخفق هادرا قلبي المرتعد..، لكن عليّ أن أصمد، فلعل (مارغوت) تجيء، ينبغي لها أن تجيء، ولو مرة أخيرة.

(إلى تفاصيل المكان)

هل هذه هى الحصيلة؟! وهذه الصومعة، هل هي النهاية؟ (علامة استفهام) كأن سني السبع والثلاثين التأمت هنا، التأمت مع قصور الأوهام وخرائب القلب لتطالعني مرعوبة، حائرة من فوضاها، ومن أنها لا تزال مركونة فى انتظار أن تجد معنى؟!

(إلى حذاء فوق كرسي)

علني أجدك ساخطا يا حذائي، يا قطعة الجلد البائسة، يا سندي، كأنك تقول الآن انتعلني، ودعنا نمشِ دون أن تعد الخطا، يا لخيبتك إذ أصبحت من نصيب الذي لا يكل من المشي، لقد جبنا القفار، ألفنا الدروب، التراب والأعشاب والحصى، ألفت مني خطوي الراسخ الثقيل، إلى أين أوصلنا الخطو ذاك؟! لو انتعلتك الآن لعرفت بأن وقع الخطا أضحى مختلفا، أنت في النهاية أرحم من أولئك الذين ساموني العذاب، أنت جدير بمتحف، لكن الخطا نفذت، وقاربت المنتهى.

(متألما)

يا لهذه الأصوات التي تطرق رأسي.

(أصوات أطفال لاهية).

أصوات: أقطع لنا أذنك؟

اقطع لنا الثانية.

فلتقطع لنا الثانية.

الفنان: أولئك الأطفال مرة أخرى.

أصوات: فلتقطع الثانية.

فلتقطع الثانية.

الفنان: (مذعورا بين الزوايا).

أتراني أمتلك أسماعي، أم أنني فقدتها؟!

صوت: رسام مجنون يقطع الآذان.

الفنان: هل تسمع الأصوات يا (ثيو)؟!

أصوات: نرميك بالحجر، أو تقطع الثانية.

الفنان: ابتعدوا عني، اتركوني.

(عاليا).

أغثني يا (ثيو).

(تتلاشى الأصوات).

أدركني الساعة، ليتني أرسم لك أجنحة من ريح تحملك إليّ.. إنى أدرك نفسي، أحس بها، وأعرف بأنني بت أفقدها، أفقد نفسي يا ثيو، أفقدها.

(معذبا)

ليته لن يخالجك أبدا، هذا الإحساس المميت، أن تعي بأنك تحيا الكثير مما منحت بلا جدوى، هذا الإحساس القاصم، حين تغدو الهنيهة أغلى ثمنا من العالم كله، ذلك البارق القاتم يا أخي الحبيب، يا نبعا من اللون، يا من بقي يعضدني حين هجرني الجميع، تعال إليّ، وهدهدني، لقد قطعوا أذني بيدي.

(ذاهلا)

لست أدري كيف استطعت أن أفعل ذلك؟ مساء الأمس تركت مارغوت تغني في الحانة، عدت إلى المنزل والأسى يملأ قلبي، نظرت في المرآة، رأيت فنسنت فيها ينول على أذنه بالموسى، لست أنا من فعلها !! بل هو فنسنت الذي فى المرآة، أجل، القلوب الأسيانة لا تدعونا إلى أن نقطع الآذان، أوشكت أن أكتب لك ولم يطاوعني القلم!! كنت أرسم طوال الليل، وأنزف، أدري بأنك ستلومني كثيرا، كأنني لا أفلح إلا فى أن أزيدك عذابا، أخذت أذني، ومضيت عائداً إلى الحانة، كانت (آرل) المدينة تغني عذاب ليلها، وأضواء الحانة تتلألأ من بعيد، فتغني لـ (آرل)، مضيت والدمع يقف عند مآقيّ، ولفحة الموسى تلتهب في أذني، وكلما اقتربت من الحانة كان صوت (مارغوت) يتناءى جذلاً لأسماعي، ويغني للنجوم، كانت وحدها على دكة الصالة، تغني، تتمايل طربا والزبائن يستمعون إليها خامدي القلوب، تتمايل مثل زهرة صفراء تميل إلى الشمس، أعطيتها الأذن، وعدت أدراجي إلى المنزل أتعقب خط الدماء. صدقني يا (ثيو) أنني أردت

الكتابة لك عن ذلك، ولكنني ما استطعت، أية جدوى بعد ذلك من الرسائل، ينبغي أن أرسم لوحة أحكي بها القصة، لكن لا، لا مزيد من اللوحات، هذه الأصابع لم تعد تميز بين الموسى والفرشاة، كأن الفرش صارت أمواسا تمزق اللوحات، وكأن الأمواس فرشا ترسم آذانا مقطوعة، لا، لا مزيد بعد الآن من الوحات.

(ثائراً)

إنها تملأ متجرك منذ سبع سنوات دون أن يقدم أحد على شراء واحدة ولو بالمصادفة، أو انسياقا إلى نزوة عابرة، ولكنك توافقني يا أخي الحبيب بأنني لم أرسم تلك اللوحات من أجل أن تباع فحسب، أنا أحلم بأنك قد تنجح في بيع واحدة على الأقل، بين سبعمائة تطفح باللون، فلعلني أعوضك عما أنفقته عليّ، من حقي أن أتطلع إلى الفوز برضاك، أنت أخي وراعيّ، تلميذي ومعلمي.

(رقيقا)

أنت تفعل ما تفعل عن طيب خاطر، ما شكوت يوما أو تذمرت، بل وقفت جنبي على الرغم من كل شيء، أنت خلاصة الجمال فى منطق الأخوة، إنما يشق عليّ أن أراك تتعذب من أجلي، هكذا أجدني بلا جرأة لأكتب لك عما فعلت، بينما امتلكت كل الجرأة لأن أمرر الموسى على قطعة من جسدي، من أجل امرأة، هي قطعة نابضة من قلبي، بل أجدني الآن بالغ الجرأة لأن أفعل الأقسى. هذه الآثام قطار يسحب بعضه.

(يائسا)

لم أعد أقوى على مواصلة حياة كالتي مضت، طرقت كل الأبواب، جربت أن أحيا الحياة التي ينشدون، البيت، العائلة، العمل، لكن الأبواب ظلت على حالها موصدة، لعل السر يمكن فى وقع الطرق على الأبواب، لكنني ما نجحت أبدا في أن أصيخ السمع إلى صدى الطرقات، ولست أعرف حتى الساعة سراً لفتح الأبواب غير تحطيمها، لم أعد أحفل بكل ذلك لم أعد أحفل بالحياة، ولست أرغب الساعة إلا بإطلالة من مارغوت، إطلالة أخيرة فحسب، إطلالة الحب والعتاب، إطلالة الدم، والرضاب.

أصوات (أصوات الأطفال ثانية)

ارم لنا أذنك.

ارم لنا الثانية.

الفنان: كفاكم، ابتعدوا عني.

أصوات: نرميك بالحجر.

أو تقطع أذنك.

الفنان: (متوسلا).

لم يعد هناك من مزيد. دعونى للخلوة الأخيرة.

(تتلاشى الأصوات)

دعوني، فإن هذا هو المفترق.

(معذبا، لاهثا).

سبع سنوات مرت، منذ أن عرفت دربي الطويل إلى الفرشاة، سبع مرت منذ أن أدركت معنى الفن الجديد، هكذا بدا الرسم لي حياة يمكنني أن أتنفس من أجلها فحسب بعد أن وجدتني مركبا يغرق فى بحر الحياة بلا رحمة!! كنت ألاقي الصد أينما وليت وجهي، الأهل أضعتهم وأضاعوني، لم يبق لي منهم غيرك، أولئك الأهل الأحبة، الصداقة أمست حلما، الإيثار، العطاء، السخاء، معاني الصداقة تلك سراب، فما وجدت غيرك صديقا يا (ثيو)، صدقني بأنني واثق أن العالم يحفل بالأصدقاء، لكنهم ما صادقوني، حين وجدت فنسنت فى المرآة يزيل عن رأسه أذنه، رأيت كل الأكف التي ما صافحته يوما، تزيلها معه، أجل بدا الرسم حبل نجاة، بارق ضوء لمن أوشك الظلام أن يلفه، تلقفت حبل النجاة، نهضت، فأخذت أرسم كل ما يقع تحت ناظري، أرسم العمال فى المناجم، الفلاحين في الحقول، الحقول المنبسطة تحت الشمس، أرسم وحدة الأشجار، المراكب الغافية، أرسم العاصفة في عمقها، أجدني أصارعها فى العراء، هي تزمجر، وأنا أعصف بالألوان على القماش مضيت أرسم الجسور فوق الأنهار، أرسم ولا أتوقف، ذلك كان ربيع الرسم وتلك كانت أعياده، أرسم الحزن، القسوة، الغواني، غرفتي، حذائي، المنزل، الشاعر، المقهى، الانطلاق البهي، حتى الموت رسمته، هل تذكر ذلك الحصاد الذي رسمته وهو يطيح بمنجله حزم السنابل ؟! كنت مندهشا لعزمه وصلابته، ولاستسلام الحقل الوديع، ذلك الحصاد هو الموت، وحبات

القمح هي نحن، إنه يمضي تحت الشمس القطاف أكان النهار مسالما أم لا، هكذا توصلت لأن أرسم الموت، خلت أني امتكلت الحل بعد اعترتني تهت فيها، وقلت بأن الفن هو الحل، الأفق الحر الشاسع، المبادرة الشجاعة، الفن هو المعنى، وكان عليّ أن أجازف بحياتي من أجله، وأي خيار كان ذلك يا ثيو!! هاهنا ينبغي أن تخلع معطف نفسك، وتبقى عاريا تحت أسواط لاهبة، تلهث فوق جلدك، هاهنا ينبغي أن تعرف بأنك قد تكون الخاسر الأوحد، وكلما هبت عليّ رياح اليأس، كانت ابتسامتك الأليفة تذللها، إيمانك بالفن يذللها، فتملأ متجرك بلوحاتي على الرغم من أنك تقاسي المر لعدم تمكنك من بيع لوحات (مونية) و(ديكا) و(بيسارو) التي تعرضها عندك، أولئك الفنانون العظام، رفاق الفن الجديد.

(شديد اليأس).

لا فائدة يا ثيو، أية سخرية هي أنني أرسم لوحات لا تثير انتباه أحد؟!

قد أكون رسام غد بعيد، لكن لا يعنيني البتة، ما الفائدة فى أن نظارة الغد سيقفون مبهوتين أمام لوحاتي، وفوق جثتي؟! يا له من عزاء أخرق لفنان، هكذا ترى يا (ثيو) الصديق بأنني انتهيت وحيدا، ولا تدعني أسر إليك بحديث هذا القلب، هاهنا أجد الكلمات تلدغ لساني، حين التقيت مارغوت وهي تغني، أحسستني واقفا أمام زهرة

من أزهـار الـشمس، مـارغوت قـدري وأقـدارنا هـي مـا تنبـضه القلـوب. ليتها تسمعني الآن.

(صوت مارغوت): فنسنت.

الفنان: من؟!

مارغوت: فنسنت

الفنان: (فرحا، خائفاً).

هو ذا صوتها، مارغوت!!

(تـدخل مـارغوت، جميلـة، مرعوبـة، حزينـة، تـضع علـى كتفهـا شالا)

مارغوت: أجل، مارغوت.

مارغوت: أعلم بأنك كنت تنتظر.

الفنان: أفلحت في أن تقرري المجيء.

مـارغوت: جئتـك وحيـدة، دون أذنـك الـتي.. أهـديت، ولقـد كانت تنزف أمامي طوال المساء.

الفنان: كان مساءً وحيداً استغرق سنين حياتي كلها.

مارغوت: كان على تلك الأعوام أن تعلمك النسيان.

الفنان: الدماء لم تجف بعد.

مارغوت: الدماء لن تجف أبداً.

(تتفقد المكان).

كنت في حال يرثى لها، ولكن ها أنا ذا معك، يدفعني إليك قدر لا يرحم، ها نحن معاً، وجها لوجه، أشك بأن امرآة غيري تقرر لقياك بعدما فعلت، لكن مارغوت الآن في صومعتك، بين لوحاتك وألوانك..(تتأمل اللوحات، وبمزيج من المرارة والأسف).

ما زلت ترسم؟!

الفنان: هي جولة أخيرة.

مارغوت: (تشير إلى اللوحة)

ما هذا ؟!

الفنان: حذائي.

مارغوت: لكم هو بائس، كان عليك أن ترسم حذائي، ألا تراه جميلاً؟!

الفنان: أراه متكلفا.

مارغوت: الحق معك، إنه يؤلم قدمي، يا لأولئك الصنّاع، يريدون للنساءِ قامة أطول.

الفنان: ليت لهنّ صنّاعا للقلوب.

مارغوت: كيف تراهما معا، لو وضعتهما جنبا إلى جنب؟!

الفنان: البؤس والجمال في لوحة واحدة.

مارغوت: هل تستطيع رسمهما معاً.

الفنان: كلا، لا يمكن أن يلتقيا.

مارغوت: ولِمَ؟!

الفنان: اسألي أذني التي أعطيتك، اسأليها، فهي تسمع.

مارغوت: لم تعد تسمع قطعة اللحم تلك.

الفنان: هل تراني أتطلع لرؤياك حقاً؟!

مارغوت: لا خيار لك.

الفنان: كأنني أهرب منك إليك؟!

مارغوت: (حازمة) جئتك مختارة، وعليك أن تستمع إليّ.

الفنان: استمعت إليك طويلا، تغنين فيّ ألحانا.

مارغوت: ذاك محض مكان يا فنسنت.

الفنان: كأنّ القلوب حانات عند الغواني!

مارغوت: الشفاه وحدها لا تغني، بل لصقها القلوب.

(شامتاً).

الفنان: لا قلب لك.

مارغوت: لي قلب أستطيع الغناء بمعزل عنه، ولك أن تسمع منه أغنية أخيرة.

الفنان: جئت تنكئين الجراح.

مارغوت: كلا، لا مزيد من الجراح يا فنسنت، قد كان ما كان، عليك أن تنسى.

الفنان: لست أفلح في أن أنسى.

مارغوت: ينبغي ذلك.

الفنان: (بلا أمل) الخطو قارب المنتهى، وآن لي أن أغادر.

مارغوت: أنت لن تغادر، لا اليوم ولا غداً، أنت لن تغادر أبدا.

الفنان: يكفيك مني ما رأيت، ويكفيني منك ما لقيت.

مارغوت: تلك أقدارنا، وحسبنا أنها هكذا مضت إن علينا أن نحيا.

الفنان: بآذان مقطوعة، بلا آذان.

مارغوت: بل بأغانٍ ما دمنا نملك إلى ذلك سبيلاً، نغني دون أن نقطع للأجساد أوصالاً.

(وقد أمسكت بزمام المبادرة).

كنت تجيء إلى الحانة كل يوم، وألوانك تصحبك، تنزوي إلى طاولة وتمضي في التطلع إليّ، ألفت منك ذلك، ألفت عيونك التي بدت بأنها تعرف أن للموس حداً يلمع، كأنها كانت تجتاحني، تجردني مما أملك، وتعانقني، وحالما أبدأ الغناء، تغدو تلك العيون آذاناً، فأحسّها بمآقيها تستمع، كان يكفيني أن الأمر ما تجاوز ذلك الحد، غير أني ما كنت أعرف بأن تلك العيون الرقيقة تعرف أيضاً أن للموس حداً يقطع!

إنما أنا امرأة يمكن أن تودي بها قطرة دم، ما أتعسك يا فنسنت ماذا فعلت بنفسك؟! وماذا فعلت بي؟!

الفنان: ليتني أستطيع أن أندم.

مارغوت: لسنا نملك حق أن نؤذي النفس التي أعطينا، وما لأذى نلحقه بأنفسنا إلاّ أن يطال الآخرين.

(عن قناعة تامة)

أردت أن تحطمني معك

الفنان: إن كان التحطيم هو ما بادرناه، فإن لنا أن نحطم بعضنا، مثل مركبين يتصارعان وحيدين في بحار هائجة، يحطمان الصواري، يمزقان الأشرعة حتى تلفهما المياه، ويغوران في الأعماق.

مارغوت: إن لم يكن التحطيم، فما هو الذي بادرناه؟!

الفنان: ها أنت تسألين، ها هي الأذن الجريحة جعلتك تبادرين الأسئلة، بينما كان وجهك أبدا بارداً كالجليد، وقلبك جامدا كالصخر.

مارغوت: (مصرّة).

فما الذي بادرناه يا فنسنت.

الفنان: (معذّباً).

الهوى يا مارغوت، بادرنا الهوى إياه وبادرنا، أوَ تعرفين ما الهوى؟! تلك الرياح التي تعصف بالقلوب، بلا أية وجهة، بلا بوصلة، ودون رجاء في وصول يابسة.

مارغوت: (ساخرة).

أعرفه وهم الهوى ذاك.

الفنان: لو كنت تدرين ما الهوى، ولو كانت رياحه قد استباحت روحك، لما وصلتك الأذن مدماة، لكنت امتلكت الأسماع

كلها، لكنه الهوى، أغنية تغنيها في الحانة كل يوم دون أن تعرفي لها وقعاً.

مارغوت: أنا امراة عابرة مجهولة، أنا معبر لا مستقر.

الفنان: وتظنين بأن لك قلباً.

مارغوت: لي قلب أيها الواهم الضائع، من تكون حتى تنصب نفسك قاضيا للقلوب، أنت رسام مثل أولئك الذين يطرقون باب الحانة كل يوم، يأتون ويمضون وألوانهم تتبعهم، وكذا آذانهم، لم يتركها أحدهم تنزف هناك بين الكراسي، لي قلب أيها الجاهل، ولكنني لم أمتلكه يوما، أنا أغني لكل القلوب ولا أمتلك. جربت أن تهوى من يغني الهوى، ولقد كان وهماً هواك ذاك، كان وهماً هواك.

الفنان: كان وهما هواي ؟! يا لقسوة المغنيين إذ يغنون الهوى ولا يدركون.

مارغوت: أن يقسو المغنون أجدى للهوى من أن يقسو المحبون.

الفنان: جئتِ تزيديني عذاباً

مارغوت: جئت لكي أمسح دماك.

الفنان: كذب كل ذلك، عودي إلى الحانة يا مارغوت.

مارغوت: (معاتبة) فنسنت.

الفنان: إلى الحانة يا مارغوت، وإلى مزيد من الفخاخ.

لن ألام لو كنت كذلك، ناصبة للفخاخ في غابة الرجال، أن أجعلهم يسقطون تباعا، مكللّين بالهزائم، معفرين بغرورهم، أنانيتهم،

جموح نزواتهم، أولئك الذين يظنون النساء لقماً سائغة، فأذيقهم مرارة شهدي، سأكون عادلة معهم تماماً.

الفنان: كذب، كذب.

مارغوت: من يزيد الآخر عذاباً، جئتك لنداوي الجراح، لا لكي تبضعها المباضع.

الفنان: لن تجد المباضع فيّ بعد كل ذلك موضعاً لتحز الجراح، ترى، أي شيء كان ذلك الذي جثم في أعماقك؟ شفقة أم كراهية؟.

(لا جواب، ثم بقوة)

الشفقة أم الكراهية ؟!

مارغوت: بل الخوف يا فنسنت، كنت أخافك، أخاف من هواك المزعوم، من اندفاعك، من شغفك الصاخب، أجل هو الخوف ذلك الذي كان يجثم في أعماقي.

الفنان: بل الكراهية.

مارغوت: (عاليا)

هراء.

الفنان: الكراهية.

مارغوت: هراء هراء، ألست ترى إلى أي مدن أوصلنا حبك؟! بأي وحل بدأنا نتمرغ وبأية ألسن ؟! ماذا كنت تظنني أيها الهائم التائه؟! لبؤة مفترسة ترسل إليها قطعة لحم من جسدك!!

الفنان (معذباً)

مارغوت!!

مارغوت: هل ستتخلى عن جسدك، وترسله إليّ نتفة إثر نتفة.

الفنان: مارغوت.

مارغوت ما زال حبك هنا، حيثما أودعتني، ما زال ينزف عند الطاولة.

الفنان: (متوسلاً).

لقد أحببتك يا مارغوت.

مارغوت: (بقسوة يدفعها إليها الخوف)

ما أنا ملزمة بذلك، وليس على أن أحيا الرعب من أجل الحب، لو كان ذلك حباً وكان الحب يعني الدماء فإني..أكرهك، بكلّ جوارحي أكرهك، بكل جوانحي المرعوبة أكرهك، أكره عينيك اللتين تبعثان فيّ الرعدة، لوحاتك وألوانك، رسومك التي لا تعني أي شيء.

الفنان: (صامداً)

أحببتك حباً يعصى على الوصف.

مارغوت: (تتخاذل).

أكرهك.

الفنان: أردت من حبك أن ينقذني.

مارغوت: أكرهك.

الفنان: على الرغم من علمي بأنه قاتلي.

مارغوت: لو كان هذا حباً، لو كان الحب يعني الدماء فإني أكرهك.

الفنان: إنّ على أن أمنح الدماء لو تطلبّت، ما دمت قد أحببت.

مارغوت: (صاخبة، مستسلمة).

هل يكفيك أن أقول أحبك؟ خذها: أحبك..... إذ أكرهك ؟! هل يكفيك ذلك؟ ألست ترى بأنني أتمرغ في حبك بلا جدوى؟ أحببتك ولم أكن مرغمة، أحببتك باختياري، ودون رحمة لنفسي، خلت أني لن أعرف الحب أبدا ما دامت الحانات قد تلقفتني، فذبحت قلبي عند أعتابها، وخنقت قلبي من أجل أن أحيا، ها أنا قد اعترفت لك، رغم أني بذلك ألمس نهايتي، ولكن أي معنى سيمون لهذا الإعتراف بعدما فعلت، لقد أدميت نفسك يا فنسنت، وأدميت حبي، ولك أن تعرف بأنني أحببتك دون أي أمل، لا لنداء فتوتي، ولا لغناء قلبي، لا لماض أمقته، ولا لغد أجهله، وجدتني أحبك دون أن أدري، مثل حبُّ أزهار الشمس للشمس.

(تعانقه)

أوَهل يكفيك اعترافي، لترضى أن نفترق؟!

الفنان: العمر البائس ما علمني الفراق، ولكني الساعة أتذوق علقمه.

مارغوت: لقد امتلكت الشجاعة لأن أغني لك الأغنية الأخيرة، وأظنني أجد الشجاعة الآن لكي أغادر.

(تقبله).

عدني بأنك لن تؤذي نفسك ثانية.

الفنان: بل سأنقذها.

مارغوت: وداعا يا فنسنت.

(تخرج بصمت وألم وقد تركت وشاحها)

الفنان: (مذهولاً)

يا له من شاطئ مقفر، لمراكب القبل!!

(ينتبه إلى الوشاح الذي تركته)

لقد نسيت الوشاح، ينبغي للمهزوم أن يجر خلفه شيئاً، سلاحه، وشاحه، أو قلبه.

(يخرج مسدساً)

هذا المسدس فرشاة، نستطيع به أن نضع آخر ضربة لون على لوحة الحياة.

(نحو اللوحات).

لك كل هذه اللوحات يا ثيو، تملَّ بها جيداً، فستلقى عند كلّ زاوية فيها ألواناً قاست الحياة، لن تستطيع أن تعرف مبلغ حزني لفراقها، لقد خلقتها، وهبتها وجودها، وهي الآن لا تستطيع أن تهبني شيئاً.

لقد أخفقت، لكن طلقة من هذا المسدس لن تخفق، سوف تدوّي هنا للحظة، دون أن يسمعها أحد، لكنها ستبقى تدوي طويلا في الأرجاء، لكم تخيلتها وهي تخترق، وتباعد بين ما كان ملتما، تبعدني عنك يا ثيو، عن قلبي المخذول أبداً، عن مارغوت، إن كان عليّ أن أفارق الأحبة، فإن أولئك سأفقدهم يوما ما، سواء شئت أم أبيت، لكنَّ ألوان الشمس تلك التي رسمتها بخلاياي أبدا لن أفقدها، مهما كان منطق الإطلاق، إن عليها أن تحكي هذه الحكاية الباعثة على الأسى، ليس ذنبي أن الحياة تمتلك كل هذا المجهول الباعث على اللوعة، هذا الجمال العصي على الإدراك، العصيّ على الإحتمال!!

(يضع المسدس على رأسه)

وداع لك يا ثيو، ووداعٌ أودعه عندك لمن يعز عليه اللقاء. أجل، أستطيع أن أفعلها الآن، فيستبيح صدغي دفق اللهب، قد يلبس التروي لباس الخوف، فيغدو جبناً، أو يرتدي لباس الشجاعة، ليكون طيشاً، . وقد تتعرى العجالة من كل الأثواب. إذن، تحت لواء أي كلمة ستدوي هذه الإطلاقة؟!

إلى أي دفق الحياة الراعش، أغثني يا لون الحياة، وهبني الشجاعة كي أرسمك الآن.

(يطلق).

(النهاية).

لوركا – فجر البنادق

مسرحية شعرية في فصل واحد

بغداد: ١٩٨٩.

الشخصيات:

الشاعر: فيديريكو غارثيا لوركا، الشاعر الأسباني.

المرأة: غرناطة.

موسكيتو: الفرح والبهجة، شخصية مستقاة من الفلكلور الأندلسي.

العجوز: الموت.

الكورس: نساء من الأندلس.

المشهد الأول

(مكان في غرناطة، الهزيع الأخير من الليل، ريح قوية، أصوات أجراس بعيدة، صوت نعيق بوم، موسكيتو يتعثر في العتمة).

موسكيتو: اللعنة..!

يا لهذا النعيق!
كأن صداه الرياح المدوية.
يا لهذا النعيق والهزيع الأخير.....!؟
إيه يا غرناطة!
يا مدينة المسك والألم..والغجر.
كأن عليك الليلة أن تفزعي.
فزع ألف خنجر يرتعد في العتمة.
ما الذي أودى بالرياح
لأن تجنّ بين أجراسك المدويّة؟
(عالياً).
فيديريكو...
هل تراني أستطيع الوصول إليك.
وهذا الليل يمضي في خبله؟
(لنفسه).
كف عن ارتعادك يا موسكيتو.
كان الأحرى بك أن تخفي في جعبتك.
شيئاً من البهجة لتبعثه في هذه الأبراج المرتعبة.
ما لك ترتعد أكثر منها؟ إلهي!
كأنني أحس بالأشباح تتقافز بين الزوايا.
متى ينتهي هذا الليل الذي يكتم الأنفاس؟

ويهلّ الفجر؟
(يستحث نفسه).
تماسك يا موسكيتو.
لا يصح أن يراك أحد على هذه الحال.
أنك تسعى لتفرح الآخرين بينما ترتعد أوصالك خوفاً.
ثمّ ماذا؟
كيف يستطيع الساعي الفرح.
أن يتحاشى الخوف؟
موسكيتو تماسك.
انطلق الساعة إلى فيديريكو.
إذ ينتظرك هناك.
على مقربة من عين الدمع.
(عالياً).
فيديريكو، أنا قادم إليك.
يصطدم بالعجوز التي كانت قد خلت قبل قليل.
العجوز: آه، موسكيتو
موسكيتو: (مرتعباً).
يا للشبح الملعون، من أنت؟ (يتعرف عليها).
أنت أيتها العجوز يا نذير الشؤم!!
لست أفاجأ إذ ألقاك الساعة.

العجوز: (تقهقه ملتذة).

سألت الريح عنك.

ما إن سمعت باسمك حتى دفعتني إليك.

بأذرعها المجنونة.

موسكيتو: ما أتعسني!

رحماك أيتها الرياح المزمجرة.

كان الأولى بك أن تمطريني بالصواعق.

ما رأيتك يوما أيتها العجوز.

إلا وأنت تتشممين رائحة فريسة.

لم تبحثين عني؟

أتراني الفريسة؟

العجوز: (هازئة).

أنت!

أبعد كل هذه الزهور التي تتمايل على الأرض.

أبحث عن شوكة يابسة.

أنت آخر من أفكر في البحث عنه.

موسكيتو: حمداً لله.

تنحي عن طريقي إذن.

ودعيني أمض لشأني.

العجوز: ولكنك الليلة أولهم.

موسكيتو: (مولولاً).

يا ويلتي!، هل حانت ساعتي؟

العجوز: قلت إن لا شأن لي بك.

موسكيتو: لكنك مع ذلك.

تبحثين الليلة عني.

العجوز: لأنها ليلتي.

وفجرها غنيمتي.

موسكيتو: منذ الغروب.

والوجوه المصفرة تجوب الأزقة.

وبين الأكف تختلج البنادق.

فبأي فجر تنبئين وينبؤون.

العجوز: الغروب أنبأني أيتها الخرافة.

بالغنيمة.

هناك عند الأفق المحمر.

سقط قرص الشمس.

وتدمت أحراج البرتقال.

الغروب دائما ينبئ عن فجره.

موسكيتو: كفاك ألغازاً وأفصحي.

يا عجوز.

العجوز: أنت لا تفهم.

وليس هذا بغريب عليك.
ألست تسمع الريح هذه؟
ألا تسمع كل هذا الصراخ؟
صراخ يرعب من يبعث الرعدة.
في الأوصال.
موسكيتو: إنها تدوّي وحسب.
العجوز: بل تصرخ وتصيح.
إنها الدروب السالكة إلى بئر عين الدمع.
الريح تزمجر وتقول.
الدروب تستعر.
ما بين قرية فونتي باخيروس وبئر عين الدمع.
موسكيتو: ليت صاعقة تغيبك عن ناظري.
أين عين الدمع عن فونتي باخيروس؟
العجوز: هل تذكر أنك منذ زمان بعيد.
كنت تبحث عني.
مثلما الآن أبحث عنك؟
وجدتني وقد أفعمتك الفرحة العمياء.
أرغمتني على الذهاب من فونتي باخيروس.
لأشهد ولادة طفل؟
موسكيتو: بلى أذكر.

وكيف يمكن أن أنسى ذلك.

العجوز: أومأت إلى الطفل مفاخرا.

وقلت إن ابن كل الأشياء.

قد ولد.

موسكيتو: فيديريكو هو ابن كل الأشياء.

العجوز: فرحتي الآن لا يسعها قلب.

لن يستطيع أن يتلمسها.

إلاّ من كان دون قلب.

(بانتشاء).

إنني أرغمك آلان.

على الذهاب إلى عين الدمع.

لترى غنيمتي.

ابن كل الأشياء.

(مقهقهة).

أية دورة قصيرة للزمان.

موسكيتو: إلام تلمحين يا عجوز؟

العجوز: أنت لا تفهم.

وليس هذا غريباً عليك.

ألست ترى الدروب.

يمزقها طرق الحدوات ووقع الخطوات.

وهذا الهواء إذ يرعبه صهيل الخيول.

ألست ترى لمعان البنادق.

إذ يعمي العيون؟

أبعد كل هذا تسأل عما يمكن أن يكون؟

موسكيتو: ما لفيديريكو وكل ذلك؟

العجوز: كلّه من أجله.

موسكيتو: (مذعوراً)

لا..فيديريكو..لا

العجوز بل فيديريكو نعم.

هكذا تقول البنادق.

موسكيتو: يا ويلتاه، يا لهذا النذير الراعب.

ليس لك أن تمسيه يا عجوز.

العجوز: كلا..

لن أمسه إلا بعد أن تمرح في صدره البنادق.

إنهم يبحثون الآن عنه في كل مكان.

وما هي إلا هنيهات.

حتى نجده بين أيديهم مكبلاً.

وصدره مشرع لأن تحرثه البنادق.

موسكيتو: (عالياً)

لا..فيديريكو..لا

العجوز: بل فيديريكو نعم.
هكذا تقول البنادق.
(يخرجان، العجوز تضحك وموسكيتو يولول، يدخل الكورس)
الكورس (انطلاقاً من الجوانب)
أواه.
ما أقسى الفجر في الساعة الخامسة!
والموت يفقس في الجراح.
أواه. ما أقسى الخامسة
والجراح سعير يلتهب.
فيديريكو.
يا بوح القرنفل.
لعلك الآن تضع على عنقك ربطة.
كأنها فراشة فزعة.
اركض انطلق.
البنادق تصطفّ في عين الدمع.
من أجلك.
بينما ترنو أنت حانياً إلى السماء.
والنجم الذي يرشق النبل بالماء.
أواه.
يا للقسوة إذ تدق الخامسة.

العنادل تجمعت في كروم الزيتون.
والحساسين والغجر.
موعدهم دقة الموت في الخامسة.
أواه.
ما أقسى الخامسة.
(إظلام).

المشهد الثاني

(الشاعر والمرأة في مكان آخر قرب غرناطة).
المرأة: أرح رأسك في حضني يا قمر الزيتون.
الشاعر: كان ذلك حلماً فحسب..
نزف الغروب على يديّ.
دم النار، دم الذهب.
نزّ على الأفق وأسطح المنازل.
ما لمحت في العتمة الخانقة وجهاً.
ولا شبحاً.
وغرناطة!
المرأة: غرناطتك.
الشاعر: غرناطتي.

الرياح فيها تدوّي.
القياثير مقطعة الأوتار.
موثقة على جدران المنازل.
كنت أتخبط في الظلمة وحيداً.
أبحث عنك.
المرأة: عني؟
الشاعر: أردت أن ألمح طرفاً من عينيك.
لتعود إليّ أنفاسي.
غالبت فزعي.
خلت أني انتهيت غفلة.
دون أن أحسّ الشهقة الأخيرة.
نظرت إلى كفيّ.
كانتا دون أصابع!
ذهلت..
وددت أن أصرخ.
لكن صوتي كان قد غادرني أيضاً.
إلهي.
من أين للبيانو بأصابع مشرئبة لينوح.
ليزحف مثل الثعابين.
فوق الأسطر البيضاء والسوداء.

أواه.. يا لعطش الأصابع.

المرأة: ثم.

الشاعر: ثم تناهى قوياً لأسماعي ضجيج مدوٍ.

رفعت أنظاري نحو الأبراج.

رأيت البيانو هناك معلقاً بأوتاره.

يتمايل، يتمايل.

وأصابعه تتساقط عنه.

مثل أوراق الخريف.

ركضت كالمجنون على الطريق.

أردت أن ألملم الأصابع.

لكنها تناثرت بيضاء سوداء في الأزقة.

تركتها وتسلقت السلالم إلى البيانو.

كان عارياً دون أصابع.

لكنني عند الزوايا وجدت أصابعي مغروسة في الجوانب.

كانت الأجراس تدق.

أصابعي تعزف.

وقلب البيانو يخفق دون رحمة!

(الكورس يدخل من الجوانب).

الكورس: على الأبراج تدق الأجراس.

أنغامها تنفرط.

تتفتح في الرياح أزاهير صفراء.
وعلى الدرب يسير المغني.
المرأة: أي حلم كان ذاك؟
الشاعر: بل أي نشيد كان ذاك.
الكورس: على الدرب.
نحو عين الدمع يسير المغني.
مصفداً بورد البرتقال.
إنه يسير نحو عين الدمع.
ذلك الموت المغني.
الشاعر: أي نشيد كان ذاك.
للموت المغني.
المرأة: لكنه حلم فحسب.
ولسنا نعرف عند أي منحنى للحلم نختلط بالأوهام.
الشاعر: الغدير الذي يترقرق هناك.
بين الكروم وفي قلبي.
يحلم كذلك.
المرأة: ها أنا ذا جنبك
وأنت جنبي.
فدعنا نتدفق كالغدير.
الشاعر: لن تموت الغدران في القلب.

لو جفت ينابيعها.

المرأة: فيديريكو..

ما لي أحس الليلة خاطراً ما ألفته.

يهمّ بين جوانحك.

الشاعر: ليتك ترين الصدع الذي تشكل في قلبي.

الكورس: سود الخيول على الطرقات.

سود هي الحدوات.

فيديريكو انطلق.

سود يأتونك عبر الرمال.

رؤوسهم.

قلاع مبهمة لصق الرقاب.

فيديريكو انطلق، اركض.

الشاعر: يا لهذه المدينة التي تختلج!!

المرأة: يا لهذا القلب الذي يختلج!!

الكورس: غرناطة يا غرناطة.

يا مدينة الألم والمسك والغجر.

في الزوايا ترتفع الرايات.

يتعالى على الرمال طرق الحدوات.

أطفئي أنوارك الخضراء.

وزنري خصرك بالعتمة.

غرناطة..

يا مدينة تعصى على النسيان.

ليتهم يتركونك بعيداً في البحر.

بعيداً بعيداً، صوب الرياح.

المرأة: فيديريكو.

يا بوح القرنفل.

الخوف يجتاحني.

يعمي بصيرتي...

الشاعر: خضراء، أريدك خضراء.

تحت القمر الغجري..

المرأة والكورس (على الدرب).

يسير الموت المغني.

مصفداً بالبرتقال.

إنه يغني ويغني ويغني.

خضراء.. أريدك خضراء.

الشاعر: أريدك خضراء.

خضراء..

(يخلد إلى حضن المرأة).

المرأة: يا ويلتي.

إلآم يلمح فيديريكو.

إلام يومئ هذا الفجر؟

الكورس: إلى هشيم الورد في عين الدمع.

المرأة: إلامّ تلمحون؟

الكورس: لا

لا تسمر الخنجر في لحمه.

إنه يحفر القلب.

مثل سكين محراث على أرض مجدبة.

لا، لا تغرسه في لحمه.

المرأة: فيديريكو الآن في حضني.

الكورس: إنه هنا، وهناك.

فيديريكو الآن في كل مكان.

المرأة: لكنه الآن في حضني.

الكورس: هاهنا.

سوف تلتمع الفوهات.

في أول الضياء.

المرأة: ولكن.

ما لفيديريكو وحديث البنادق.

الكورس: ما لها من حديث غيره.

المرأة: (تترك الشاعر) فهل كانوا يبحثون عنه إذاً؟

الكورس: نعم.

ومن أجله كانوا يجوبون الليل.
المرأة: ما لفيديريكو وحديث البنادق.
لا، لا أريد أن أراه.
ودمه على الرمل مراق.
الكورس: البدر ينظر عبر السماء.
والزيتون على الرمال.
يلعق الدم المراق.
المرأة: لا، لا.
الكورس: التراب يصطفُ أكواماً جنب الحفر.
والضوء يولد ميتاً.
كالحجارة.
المرأة: لا
لا أريد أن أراه.
الكورس: كان يبحث عنك.
عند مسيل النهر.
لكنه لم يجد غير دماه.
المرأة: لا تقولوا بأني سأراه.
دفق يرش الزيتون!!
الكورس: الأمهات يرفعن الرؤوس إلى السماء.
لكيلا يرينه

المرأة: البدر يناديهنّ.

فمن يناديني لكيلا أراه.

لا.

لا أريد أن أرى الدماء.

فما من إناء يلمها.

ولا سنونوات لتشربها.

الكورس: ها الرحلة تبدأ إلى عين الدمع.

الثيران تمضي إليها.

السيوف والغجر والمطر.

الأبراج والفراشات.

المناديل والخيول.

تماره وأمنون وال كومباريو.

وداود الذي يقطع أوتاره.

المرأة: أواه يا أيها الفجر الوضيء.

لو صرت طائراً يخفق في السماء.

بأي سهام كنت رميتك.

تعود إلى الشاعر، وتنحني عند رأسه.

فيدريكو.

نم.

حلق، فالبحر أيضاً ينام.

(العجوز وموسكيتو يدخلان).

العجوز: ها، هو ذا.

انظر إليه يا فزّاعة.

إنه ينام الآن كالطفل.

جنب المرأة الفاتنة ذات الأبراج.

دون أن يعلم بأن للخامسات.

دقة أخيرة.

(موسكيتو صامت).

ما لك سكتّ، اذهب إليه.

أوقظه، لعلك ستنقذه.

(موسكيتو في مكانه، تقهقه العجوز).

دوري.

يا دائرة الساعة الحالكة.

اقرعي أجراسك يا غرناطة.

موعدنا الآن دقة الموت في الخامسة.

الكورس والمرأة وموسكيتو يتحلقون واجمين حول الشاعر.

إليّ.

إليّ يا أول الضياء.

أرعد ذيول الليل الآيل إلى الفناء.

(صوت أجراس).

ها الخامسة تدقّ.

الكورس: (مع المرأة وموسكيتو).

وا أسفي.

على عنقك حديث العهد بالذبح.

وا أسفي.

على جنبك المفتوح على وسعه.

أعطيتنا بحراً من الشهيق.

ولا نملك الآن أن نهبك.

غير زفرة أخيرة.

لكنك تدري.

بأنك ابتدأت فينا عهد السنبلة.

عهداً من الشهيق لزفرة أخيرة.

فيديريكو، إلى الأمام.

نم، حلق استرح.

فالبحر أيضاً ينام.

(يخرجون وقهقهات العجوز مستمرّة، يقى الشاعر وحده)

إظلام.

النهاية.

- **هذا النص مبني على الأجواء التي بثها الشاعر في قصائده.**